﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ٤١﴾ [المعارج: 40 - 41]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

التَّمرُّد على الدّين داعيةُ الاستبدالِ

لمّا سبَقَ في السّياق ذِكر إهطاعِ الكفّار نحوَ الرَّسول ﷺ، والإخبار عن سوءِ أدَبِهم، وتربُّصهم به، وتصيُّدهم ما يُمَكِّنُهُم تَمْويهُهُ على المُسْلِمين، وتذكيرهم بأصلِ مَنْبَتِهم القَذِرِ إزراءً عليهم، وكان ذلك تمهيدًا لتَهْديدِهم بالإهلاك والاستبدالِ؛ أقسَمَ اللّهُ تعالى هُنا بأنَّ ذلك عليه يسيرٌ، وأنَّه المتَمَكِّن منهم، القادرُ على استبدالِهم بخيرٍ مِنْهُم لدينِه ولِرسولِه ﷺ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾: (شرق) تدور تصريفاتُها على إضاءَةٍ وفَتْحٍ[1]، يُقال: شَرَقَتِ الشَّمس شُروقًا؛ إذا طلعَت، وأشْرَقَتْ: أضاءت، قال الله تعالى: ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ١٨﴾ [ص: 18] أي: وقت الإشراق. والمَشْرِقُ والمغرب إذا أُفْرِدا؛ فللإشارَةِ إلى ناحيَتَي الشَّرْقِ والغرب، وإذا ثُنّيا؛ فللإشارَةِ إلى مطلَعَي ومغرِبَي الشِّتاء والصّيف، وإذا جُمِعا؛ فباعْتِبارِ مطلع كلّ يوم ومغربه، أو بمطلع كلّ فصلٍ ومغربه، قال تعالى: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [الشُّعراء: 28]، وقال تعالى: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ١٧﴾ [الرّحمن: 17]، وقال تعالى: ﴿بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾[2].

2) ﴿وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾: (غرب) تدلُّ اشتقاقاتُها على الانصباب والانحِدارِ إلى مَقَرٍّ أو مَغارٍ عَبْرَ مسافَةٍ ما بِثقَلٍ أو قوَّةٍ[3]. ومِنْهُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شرق).
(2) الراغب، المفردات: (شرق).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (غرب).

الغَرْبُ؛ وهو غيبوبَةُ الشَّمس، يقال: غربَتْ تغرُب غربًا وغُروبا، الشَّمْس: مكانُ غروبِها[1]، ويُنظر إليه بالإفرادِ والتَّثنيةِ والجَمْعِ على نحوِ ما يُذكَر في المَشْرِقِ.

3) ﴿تُبَدِّلَ﴾: (بدل) تدور تصريفاتُها على قيام شَيْءٍ مَقام شيءٍ آخرَ ذاهبٍ[2]، ومِنْهُ: بِدْلُ الشَّيءِ، وبَدَلُه وبَديلُه: الخَلَفُ منه، والجَمْعُ: أبدالٌ، وتَبَدَّل الشَّيءَ، وتَبَدَّل به، واستبدله، واستبدل بهِ، كلّه: اتَّخذ منهُ بَدَلا. وأبدل الشَّيءَ مِن الشَّيء، وبَدَّله: تَخِذَه منه بدلًا، وهو المعنى المراد في قوله سُبحانَهُ: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾، وقولُ اللّهِ تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: 48]، قال الزَّجّاج: تَسْيير جبالها، وتَفجير بحارِها، وكونُها مستويةً لا ترى فيها عوجًا ولا أمتا. وتبديلُ السَّماوات: انتثارُ كواكبها، أو انفطارُها وانشقاقُها، وتكويرُ شَمْسِها، وخسوف قمرها، وأراد: غيرَ السَّماوات، فاكتفى بما تقدَّم[3].

4) ﴿بِمَسْبُوقِينَ﴾: (سبق) تدلُّ اشتقاقاتُها على مَعْنى التَّقديم[4]، وأصل السَّبْقِ: التّقدّم في السّير، نحو قوله تعالى: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝٤﴾ [النّازعات: 4]، والاسْتِباقُ: التَّسابُقُ. قال: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ [يوسف: 17]، وقال سُبحانَهُ: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ [يوسف: 25]، ثُمَّ يُتَجوّز به في غيره مِن التّقدّم، قال اللّه تعالى: ﴿مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: 11]، وقال: ﴿كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ [طه: 129]؛ أي: نَفَذَتْ وتَقدّمَتْ.

ويُستعار السَّبْقُ لإحراز الفَضْلِ والتَّبريز، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠﴾ [الواقعة: 10]؛ أي: المتقدّمون إلى ثواب اللّه وجنّته بالأعمال الصّالحة، نحو قوله: ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [آل عمران: 114]، وكذا قوله: ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾ [المؤمنون: 61]، ومعنى قولِه تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾: لا يَفوتونَنا[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إذا كان الأمْرُ كما ذكرنا مِن أنَّه سبحانه أنشأهم إنشاءً مِن النُّطْفة المَذِرَة كما يعلمونَ،

(1) الراغب، المفردات: (غرب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بدل).
(3) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (بدل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبق).
(5) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (سبق).

ولم يكونوا شيئًا مذكورًا؛ فلا أُقسم بربّ مشارقِ الشَّمس والقمر والكواكب ومغاربها على قُدرتنا البالغةِ على أنْ نُهلِكهم حسبما تَقْتضيه جناياتُهم، ونبدِّلهم خيرًا منهم، وما نَحْنُ بِمَسْبوقينَ ولا بمغلوبين إن أردنا ذلك، لكنَّ إرادتنا المَبْنيَّة على الحِكَم البالغةِ اقتضتْ تأخيرَ عقوبَتِهم[1].

تأخيرُ اللهِ تعالى عقوبةَ الكافر وغيره من العصاةِ؛ إنَّما ذلك يَعْلَمُها سُبْحانَهُ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾:

(الفاء) في قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ فصيحةٌ، مؤذِنَةٌ بمحذوفٍ وهو الشَّرْطُ، والتَّقدير: "إذا كان الأمر كما ذكرنا من أنَّ خَلْقَهُم ﴿مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾ وهو النُّطفة القَذِرَةُ؛ ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾"[2]، ففي التَّركيبِ إيجازُ حذفٍ، دلَّت عليهِ الفاءُ وأومأتْ إليهِ.

الفاء الفَصيحَةُ عُنْصُرُ إيجازٍ مهمّ في توثيقِ عُرى التَّراكيب

معنى (لا) في قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾:

تعدَّدت آراء العلماء في (لا) الدّاخلة على فعل القسم ﴿أُقۡسِمُ﴾، فمنهم مَن قال بأنَّها زائدة، والمعنى: فأُقْسِم بربِّ المشارق والمغارب[3]، ومنهم من قال: إنَّها للنَّفي؛ أي: نَفْي القسَم برَبِّ المشارق والمغارب؛ تنزيهًا لله ﷻ أن يُقْسَم به على أمرٍ لا يحتاج إلى قسَم؛ لظهورِهِ ظُهورًا يكادُ يكون في عِداد البَدَهيّات؛ وهو أنَّ الله ﷻ قادرٌ على أنْ يَذهب بهؤلاء المشركين ويقطَعَ دابِرَهُم، ثُمَّ يأتي بِمَن هم خيرٌ منهم إدراكا واستقامة على طريق الهدى، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ۝١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ۝١٧﴾ [فاطر: 16 - 17][4]؛ فـ "أُكِّد بنَفْيِ القسَمِ المشير إلى عدمِ الحاجة إليه؛ لكثرة

القسم بالله تعالى خطير؛ ينبغي ألّا يُلجأ إليه إلّا عند الحاجةِ

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1586.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 73.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 353.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1190.

الأدلَّة المُغْنية عنه؛ لِما لذلك المُقْسَم عليه مِن الغرابة في ذلك الوقت؛ لكثرة الكفّار وقوَّة شَوْكَتِهم"[1].

ومِنَ العلماء من قالَ بأنَّ هذا التَّركيب (لا أقسم) "صيغةُ تحقيقِ قسَم، وأصلُها أنَّها امتناعٌ مِنَ القسم امتناعَ تحرُّجٍ مِن أن يُحلَف بالمقسَم به خشيةَ الحِنْث، فشاع استعمال ذلك في كلِّ قسَم يُراد تحقيقُه، واعتُبِر حرف (لا) كالمزيدِ"[2] لإرادَةِ التَّوكيد"[3]، وذلك يدلُّ على أنَّ الإقبال على القسم بالله تعالى خطير؛ ينبغي ألّا يُلجأ إليه إلّا عِنْدَ الحاجَةِ أو الاضطرارِ، والّذي يدلُّ على أنَّ هذا التَّركيبَ يُرادُ به القسَمُ لا نفيُهُ: قولُ الله سُبحانَهُ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾ [الواقعة: 75]، ثُمَّ قال بعدها: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦﴾ [الواقعة: 76]، فأثبتَ أنَّهُ قسَمٌ.

دلالَةُ التَّعبير بمفردة القسَمِ في قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾:

القسَمُ أبلغُ مِنَ الحَلِفِ؛ لما فيه مِنَ الدّلالةِ على دَفْعِ الخَصْمِ

جاءَ التَّعبيرُ بمفردة القَسَم في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾، وأصلُ ذلك كما ذكر اللُّغويّون "من القَسامَة؛ وهي الأيْمانُ تُقْسَم على أولياءِ المَقْتولِ إذا ادَّعَوا دَمَ مقتولِهم على ناسٍ اتَّهموهُم به"[4]، والتَّعبيرُ به أبلغُ من التَّعبير بالحَلِف؛ لِأنَّ قول القائلِ: أُقْسِم باللهِ، معناه: أنَّه صار ذا قسم بالله، وأصلُ القسْم: النَّصيب، والمعنى: "أنَّ الَّذي أقسم عَلَيْهِ من المال وغَيره؛ قد أحرزه ودفع عَنهُ الخصمَ بالله. والحلف، من قَوْلك: سيفٌ حَليف؛ أي: قاطعٌ ماض، فَإذا قلتَ: حلَفَ باللهِ؛ فكأنَّك قلتَ: قَطَعَ المُخاصمَة بالله، فالأوَّل أبلغ؛ لِأنَّهُ يتَضَمَّن معنى الآخر مَعَ دفع الخَصْمِ"[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 416.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 141.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 330.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قسم).
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 56.

و"هذا إقسامٌ منه تعالى بالمشارق والمغاربِ للشَّمس والقمر والكواكبِ؛ لِما فيها من الآيات الباهِرات على البعث، وقدرته على تبديلِ أمثالِهِم، وهُم بأعيانِهِم، كما قال تعالى: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الواقعة: 61]"[1].

بيانُ مَرْجِع ضميرِ الفاعلِ في ﴿أُقْسِمُ﴾، ولطيفةُ إفرادِهِ هُنا:

إفـرادُ الضَّميرِ مـراعـاةً لـشأنِ الـوحـدانـيَّـةِ؛ دفعًا لتَشْغيب أهل الكُفْرِ

الفعل المضارعُ ﴿أُقْسِمُ﴾ فاعِلُهُ ضميرٌ مستَتِرٌ وجوبًا تقديرهُ: أنا، وهو يعودُ إلى اللّه ﷻ. وتوحيدُه ﷻ ضميرَ الفاعل في الفعل ﴿أُقْسِمُ﴾ يُلائم تحريرَ قضيَّةِ التَّوحيد في ذلك المقام - مقام معالجةِ الكُفْرِ -؛ فـ "أُفْرِدَ الضَّمير في ﴿أُقْسِمُ﴾ مُعَرًّى عن مَظهر العظمَةِ؛ لِئلّا يَتَعنّت متعنِّت في أمرِ الوحدانيَّة"[2]؛ أي: للتَّضييق على الكفّار في جُحودِهِم وحدانيَّته ﷻ؛ فالتَّهديد بالقسَمِ يتعلَّق بهم؛ لأنَّ يقين المؤمنين يُغْني عنهُ.

معنى (الباء) في قوله: ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾:

جـلالَـةُ القسَم وخُـطـورَتُـه، خاصَّةً في مقامِ التَّهديد والوعيدِ

(الباء) في قوله: ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ باءُ القسَم، ويأتي ابتداءُ الكلام بالقسَم تحقيقًا لمَضْمونِه على طريقة الأقْسام الواردةِ في القرآن الكريم[3]. وإذا أقْسَمَ اللّهُ تعالى؛ فالأمر خطيرٌ وجليلٌ، خاصَّةً إذا جاء القسَمُ في مقام الإيعادِ والتَّهديد، كالوارِدِ في هذا الموضِعِ.

نُكْتَةُ التَّعبير بالرَّبِّ في قوله: ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾، ولطيفَةُ الالتفاتِ في القسَمِ:

ربُّ المشارقِ والمغارب تعُمُّ رحماتُهُ وبركاتُه أقطارَ سماواتِهِ وأرضِهِ

اسمُ اللّهِ تعالى (الرّبُّ) عنوانُ العطاء الجزيلِ والرَّحمة العظيمة؛ فإنَّه تعالى مُرَبٍّ لخلقِهِ وسيِّدُهم ومدبِّرُ أمورهم[4]. وفي التَّعبير بعنوان الرّبوبيَّة في الجارِّ والمجرور ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ تنبيهٌ إلى ما تنشرهُ رحمَتُه سبحانه على الأقطارِ كُلِّها؛ مشارقِها ومغاربها،

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 888.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 416.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 141.
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 416.

فمَن آمَن به سُبْحانَهُ ظَفِرَ برحمةِ رَبِّ المشارق والمغارب. فالرَّبُّ فيه معنى التَّربية والعطاء. واتِّخاذ المخلوقين أربابًا غيره سبحانَهُ يكلِّفهم عَنَتًا، بخلافِ اتِّخاذ ربِّ المشارق والمغاربِ إلهًا معبودًا؛ فإنَّهُ يَسْتَنْزِل بركاتِه ورحماتِه، ويُنيل العبدَ صنوفَ الخيراتِ.

وفي قوله تعالى: ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ بعد قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ التفاتٌ من التكلُّم إلى الغَيبة، ونُكْتَةُ ذلك: أنَّه أتاح ذِكْرَ ﴿ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾، ولولا هذا لقيل - في غير القرآن الكريم -: (فأقسم إنّا لقادرون...)؛ ولما أُتيحَ ذِكْرُهُما، مع أنَّ ذِكْرَهُما من مقتضياتِ المقامِ للإلْماحِ إلى الإحياء والبعث بعدَ الإماتة؛ وهو مِن أعراضِ الخبَرِ.

دلالةُ القسَمِ بـ(ربِّ المشارق والمغارب):

القَسم القرآنيُّ يتضمَّن الدّلالة على بيان العظمَةِ الإلهيَّة

ذِكْر المشارق والمغاربِ ذِكْرٌ للسَّماوات والأرض، وفي ذِكْرِهما ذِكرٌ لأهلِهما، فيكون المعنى: فلا أقسِمُ بِرَبِّ الخلائق أجمع.

وكان مقتضى الظّاهر في هذا القسم؛ أن يرد النَّظم القرآنيُّ: (فلا أقسم بي) إذا كان القسَم من الله تعالى، هذا هو ظاهرُ الكلام في مُتعارَف اللِّسان. وفي العدول إلى (ربِّ المشارق والمغارب) إضفاءٌ احتمال أن يكون هذا القَسَمُ من النَّبيِّ ﷺ، كأنَّه علَّمه أن يُقْسِمَ به ويقولَ له: قل يا مُحَمَّد: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾.

أو أنَّه قسَمٌ من الله تعالى على تقدير محذوفٍ؛ كأنَّه قال: فلا أقسم بي؛ فأنا ربُّ المشارق والمغارب. وهو أيضا يستقيمُ بلَفْظِ الغائبِ كما يستقيم بلَفْظِ الحاضر؛ لأنَّ الخلْق كلَّه لله تعالى شهودٌ، وليس هو شاهدًا للخلق في الدّنيا، فيخرج الكلامُ بينهم على ما يخاطَب الغائب، ومرَّة على الوجه الّذي يُخاطَب به الشّاهد، ومثل هذا مستعملٌ في متعارف اللِّسانِ[1].

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 213.

ربوبيَّته تعالى المشارقَ والمغاربَ؛ تستلزمُ ربوبيَّته لِلعالَم كلِّه

لطيفةُ الإضافةِ في ﴿بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾:

إضافةُ لفظ (ربّ) إلى ﴿ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾ مُعَرَّفةً في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ إضافة مُلْكٍ، فهو سبحانه المالكُ الواحد لجميع المشارِقِ وجميعِ المَغارب، و"القسَمُ باللهِ تعالى بعنوان ربوبيَّته المشارقَ والمغارب؛ معناه: ربوبيَّته العالَمَ كلَّه؛ لأنَّ العالم منحصِرٌ في جهات شروق الشَّمس وغروبها"[1]، فإذا ذُكرت الأطرافُ؛ اندرجَ ما بينها فيها، كما تقرَّر في القواعِدِ: أنَّ البَيْنَ مستحضَرٌ في الطَّرفين.

تمثيلُ حالِ الإحياءِ بَعْدَ الموتِ بِشُروقِ الشَّمس بعدَ غُروبِها

معنى (أل) في ﴿ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ جنسيّة، تفيد استغراقَ جميع المشارقِ والمغارب، ما يعلمُها الخَلْقُ وما لا يعلمونَها؛ ففي الكون من النّجوم والكواكبِ ما لا يعلمه إلّا اللّه تعالى، وكلٌّ منها له مشارِقُه ومغارِبُه، وهذه "الشَّمس تطلع كلَّ سنَةٍ في ثلاثمائةٍ وستّين كوّةً؛ تطلُع كلَّ يوم في كوَّة، لا ترجع إلى تلك الكوَّة إلى ذلك اليومِ مِنَ العام المقبِل، ولا تطلع إلّا وهي كارهة، تقول: ربّ لا تُطْلعني على عبادِك، فإنّي أراهم يَعصونك، يَعملون بِمَعاصيك أراهم، فهو مطلع الشَّمس ومغربها، ومطلع القمر ومغربه - كما يقول ابنُ عباس ﷺ - "[2]، فتشرق "على المنهاجِ الّذي دبّره، والقانونِ القويم الّذي أتقنَه وسخَّره، ستَّة أشهر صاعدةً، وستَّة أشهرٍ هابطة"[3].

وفي إيثار المشارق والمغارب بالقسَم بِرَبِّها أيضًا "رَعْيٌ لِمُناسبة طلوعِ الشَّمس بَعد غروبها؛ لتَمثيل الإحياءِ بعد الموتِ"[4] الّذي يُنْكِرُه الكُفّار.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 179.

(2) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 283.

(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 416.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 179.

معنى (الواو) في ﴿ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾، ونُكتةُ اخْتِصاصِهما بالقسَم:

مناسبَةُ المُقْسَمِ بـه للمُقْسَمِ عليهِ

(الواو) في ﴿ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ عاطفة؛ وهي تجمع بين المشارق والمغاربِ في ربوبيَّتها جميعًا لله تعالى بما تستلزِمُه من ربوبيَّته تعالى للخَلْقِ جميعًا.

وفي اختصاص المشارق والمغاربِ إلماحٌ إلى أنَّ ظهور قدرته على استبدالهم بغيرهم ووضوحَهُ أكثَرُ مِنَ الشَّمس في رابعَةِ النَّهار؛ فربُّك القادِرُ على كلِّ شيءٍ - خاصَّة شروقَ الشَّمسِ وغُروبَها - قادرٌ على تبديل خلْقٍ خيرٍ من هؤلاء، فيهلكُهم ويأتي بخلق جديدٍ، وما ذلك على الله بعزيز، وما هو بمسبوقٍ في ذلك، وما هُم بمعجزي الله في شيءٍ[1].

ومِن دقائق ما يُلمح إليه اختصاصُ المشارقِ والمغاربِ: تنبيهُ القوم إلى ما "ينشأ عنها مِنَ اللَّيل والنَّهار والفصول الأربعة، فكان بها - أي: المشارق والمغارب - صلاحُ العالم بمعرفَةِ الحساب، وإصلاح المآكلِ والمشارب، وغير ذلك مِن المآرب"[2].

توجيهُ القراءات القرآنيَّة في ﴿ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾:

تنوُّع القراءاتِ القُرآنيَّة يُثري الدّلالات التَّركيبيَّة

اتَّفق القرّاء العشرةُ على قراءةِ ﴿ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ بالجمع، وقُرِئَ شاذًّا؛ وهي قراءةُ أبي حَيْوَة وابنِ مُحَيْصِنٍ وغيرهما (المشرق والمغرب) بالإفراد[3]، أمّا الإفراد؛ فالمرادُ مشرق كلِّ يوم من السَّنة ومغربُه، أو مشرقُ كلِّ كوكبٍ ومغربُه، أو الأقطار الّتي تشرق فيها الشَّمس وتغرب[4].

وأمّا جمع ﴿ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾؛ فباعتبار تعدُّد مطالع الشَّمس

(1) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 750.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 416.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 353.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 321.

ومغاربها في فصول السَّنة؛ فإنَّ ذلك مظهر عجيبٌ مِن مظاهر القدرةِ الإلهيَّة والحكمة الرّبّانيَّة؛ لدلالتهِ على عَظيم صُنْع الله تعالى مِن حيث إنَّه دالٌّ على الحركاتِ الحافّة بالشَّمس، الّتي هي مِن عظيم المخلوقات؛ ولذلك لم يُذكر في القرآنِ قَسَمٌ بِجهةٍ غيرِ المشرق والمغرب مع أنَّ الشّمال والجنوب جهتان مشهورتانِ عندَ العرب[1].

دلالة تكثيف التّوكيدات في قوله: ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾:

تعدّدت التَّوكيدات في قوله تعالى: ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾، وتنوَّعت تنوّعًا جمَعَ بين القسم بربِّ المشارقِ والمغارب، و(إنّ)، وضمير العظمَةِ، ولام التَّوكيد، وصيغة اسم الفاعل في الخبر ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾، و"الالتفات إلى مظهر العظمة في كلٍّ مِنَ الاسم والخبر، فكان في إخبارهِ بعدَ الإقسام معَ التَّأكيد إشارةٌ إلى أعلى مراتب التَّأكيد ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾"[2]، ولا يدع مجالًا لشكّ شاكّ في صدق الخبَر وصِحّته، وعلى الرُّغم مِنْ ذلك؛ فقد غلبت على بعض النّاس شِقْوَتُهم، ولا ينفُذ ذلك الخبَرُ - بكلِّ ذلك الحشد من التَّوكيدات - إلى قلوبهم وعقولهم.

مَـن طُـمِـسَـتْ بـصـيرتُـه؛ لَـمْ يَنفعه شيءٌ مِن توكيدٍ أو ترغيبٍ أو ترهيبٍ

وجملة: ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ هي "موضع القسَم، فجائزٌ أن يكون أُريد به: أن يبدّل الخيرَ مِنْهُم، فيجعل مكان ما كانوا فيه مِن الشَّرِّ خيرًا؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: 99]، وقد فَعل ذلك؛ لأنَّهم أسلموا. ويحتمل أن يكون أراد به أن يبدِّل قومًا خيرًا مِنْهُم"[3].

معنى (اللّام) في الخبَرِ ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾:

(اللّام) في الخبر ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾ حرفٌ دالٌّ على التَّوكيدِ، وهي

قُـــدْرَةُ الـلـه تعالى لا مُنْتَهى لكَمالِها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 179.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 417.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 214.

تتآزر مع أخواتِها من المؤكِّدات في السّياق على تقريرِ الخبَر، وتأكيد قدرةِ الله تعالى المُطْلَقَةِ، الّتي لا منتهى لكمالِها.

دلالَةُ التَّعبير بالقُدْرَةِ، وصَوْغِ (قادرون) على زِنَةِ اسمِ الفاعل:

كمالُ قُـدْرَةِ اللهِ تعالى ودوامُها

القُدرة ضدُّ العَجْزِ، وإذا وُصِف الإنسانُ بالقدرةِ فذلك على سبيلِ التَّقييد، بخلاف وصفِ الله تعالى بالقُدرةِ؛ فهي على وجهِ الإطلاق والكمال، فهو سُبحانَهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأمّا غيرُهُ فيقدر مِنْ وجهٍ ويعجز من وجهٍ آخر[1].

وصَوْغُ خبَرِ قُدْرَته ﷻ بصيغةِ اسمِ الفاعل (قادرون) يدلُّ على ملازمة تلك القُدْرَة المُطْلَقَة المبرّأة من كلِّ عجْزٍ للهِ سُبْحانَهُ، لا تنفَكُّ عنه بذلك الكمالِ مُطْلَقًا.

وجهُ دلالةِ الآية الكريمة على وحدانيَّة الله تعالى:

انـتـظـامُ الـكَـوْنِ دليـلُ وحـدانيَّـةِ الله تعالى

في الآية الكريمة دلالةٌ على أنّ مَلِك السَّماوات والأرضين ومُدَبِّرَهما واحِدٌ؛ إذْ لَو لم يكن كذلك لكانَ لِمَلِك السَّماء أنْ يَمنع الشَّمس والقمر والكواكب مِن إيصال النَّفع إلى أهل الأرض، ويكون لِمَلك الأرضِ أن يَمنع مَلِكَ السَّماء عن غروبِها في الأرض.

ثُمَّ الّذي يُشرق ويَغرُب منذُ خُلِق يَجري على ما جَرى عليه التَّدبير جريًا واحدًا لم يقع فيه تغييرٌ ولا تبديل، ولو كان للهِ تعالى فيه شريكٌ؛ لكان لا بُدّ مِن وقوع التَّغيير فيها؛ فثبَت أنَّ تدبير السَّماوات والأرضين وتدبيرَ سُلْطانِهما راجِعٌ إلى الواحِدِ[2].

معنى ﴿عَلَىٰٓ﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾:

بيـانُ قَـهْـرِ الله تـعـالى لـعِـبـادِهِ وقُدْرَتِه عليهِمْ

﴿عَلَىٰٓ﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ حرفٌ دالٌّ على الاستعلاء، فهي تفيدُ استعلاءَ الله تعالى وقدرتَه وتمكُّنَه من تبديلِ الكُفّار بِعبادٍ أفضلَ منهم، وأطوعَ لدينِ الله تعالى ولِرَسولِهِ ﷺ.

(1) الراغب، المفردات: (قدر).
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 214.

معنى ﴿أَن﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾:

﴿أَن﴾ في قوله: ﴿لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ مصدريَّة، والمعنى: لقادرونَ على تبديل قومٍ خيرٍ منهم. والتَّعبير بالمصدر المؤوَّل أفْسَحَ التَّركيب لخصوصيّاتٍ لا يُفسِحُه لها المصدرُ الصَّريح، مِثْلِ المُضارعةِ في الفعل ﴿نُّبَدِّلَ﴾، وإسنادِهِ إلى ضمير العظمَةِ المستترِ (نَحْنُ)، وكلاهما لا يتحقَّق بغيرِ المَصْدَرِ المؤوَّلِ.

التَّعبير بالمصدر المؤوَّل يُفْسِح التَّركيب لخصوصيّات لا يُفسِحُه لها المَصْدَرُ الصَّريحُ

دلالةُ التَّعبير بالتَّبديل دونَ التَّغيير في قوله: ﴿نُّبَدِّلَ﴾، ونُكْتَةُ المُضارعَة فيهِ:

مِن دقّة التَّعبير القرآنيِّ هنا استعمالُ مفردةِ (التَّبديل) دون التَّعبيرِ بلفظِ (التَّغيير) في قول الله تعالى: ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾؛ وذلك أنَّ مقام التَّهديد يقتضي إهلاكَهُم إهلاكًا تامًّا، لا إحداثَ تغييرٍ فيهم؛ إذ "التَّبديل: اتِّخاذُ خَلَفٍ من الشَّيء، يقال: تَبَدَّل الشَّيءَ، وتَبَدَّل به، واستبدله، واستبدل به، كلُّه: اتَّخَذَ منه بَدَلا. وأبدل الشَّيءَ مِن الشَّيء، وبَدَّله: تَخِذَه منه بدلا، قال الله تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ﴾ [إبراهيم: 48]"[1]. أمّا التَّغيير؛ فَهو إحداثُ شيءٍ لَم يكُن قبلَهُ، وانتقالُ الشَّيء من حالٍ إلى حالٍ أُخرى[2].

التَّهْديدُ الإلهيُّ للكُفّار بالإهلاكِ التّامِّ

فَمَعْنى ﴿أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ أي: "نُهْلِكهم بالمرَّة؛ حسبما تقتضيهِ جِناياتُهم، ونأتي بَدَلَهم بِخَلْقٍ آخرين، ليسوا على صِفَتِهِم"[3] يُطيعونَني، ولا يَعْصونَني[4].

وصيغَةُ المُضارعَةِ في الفعل ﴿نُّبَدِّلَ﴾ لاستحضار صورةِ التَّبديل، وإقامتها في خَيال المُتَلَقّي؛ فيتملّكه الخوفُ، ويُبادر إلى الإيمان بالله تعالى وطاعتِهِ.

(1) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (بدل).
(2) الجرجاني، التعريفات، ص: 63.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 9/ 35.
(4) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 282.

دلالَةُ الخَيْريَّة في المفعول ﴿خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾، ولطيفَةُ تَنْكيرِهِ:

سَـعَـةُ الـخَـيْرِ الإلـهـيِّ وامتلاءُ كُنوزِهِ

الخَيْريَّة في المفعول ﴿خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ اسمُ تفضيلٍ؛ حيثُ لا يُشتَقّ منهُ التَّفضيلُ على وزن أفعَل إلّا على وجهِ القِلَّةِ. واسمُ التَّفضيلِ هنا ليس على بابِهِ؛ إذ الكافِرُ لا خيرَ فيه، فكان في التَّعبيرِ بـ ﴿خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ دلالةٌ على خُلوِّ الكافرين مِن جنسِ الخَيْر، وتمحّضهم للشَّرّ، وأنَّ البَديلَ المهدَّد باستبدالِهِ مِنْهُم خيرٌ وأفضلُ مِنْهُم على كلِّ حالٍ؛ خلقًا أو وصفًا "فيكونوا أشَدَّ بسطةً في الدُّنيا وأكثرَ أموالًا وأولادًا وأعلى قدرًا وأكثر حَشَمًا ووجاهة وحزمًا وخدمًا، فيكونوا عندكَ خلقًا على قلبِ واحدٍ في سماعِ قولِكَ وتوقيرك وتعظيمك، والسّعي في كلِّ ما يَشْرَح صدرَك، بدل ما يَعْمَلُ هؤلاء مِن الهُزْءِ والتَّصفيق والصَّفير وكلّ ما يضيق به صَدْرك.

وقد فعل ذلك سُبْحانَه بالمهاجرين والأنصار والتّابعين لهم بإحسانٍ بالسَّعة في الرِّزق بأخْذِ أموالِ الجبّارين من كِسْرى وقَيْصَر، والتَّمكّن في الأرض حتّى كانوا مُلوكَ الدُّنيا مع العمَلِ بما يوجِبُ لَهُم ملكَ الآخِرَة، فرّجوا الكربَ عن رسول الله ﷺ وبذلوا في مرضاته الأنفُسَ والأموالَ"[1].

وفي تنكير ﴿خَيْرًا﴾ دلالَةٌ على امتلاءِ كُنوزِه تعالى بالخير، وأنَّ لديه ﷻ مِن الخير ما لا يعلَمُهُ خَلْقُه، وأنَّه يَقْدِرُ على تَبْديل ما شاءَ بخيرٍ مِنْهُ.

مَعْنى (مِنْ) في قوله: ﴿خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾، وبيانُ مَرْجِعِ الضَّمير فيهِ:

الغَضَبُ الإلهيّ قَـد يـوجِـبُ الاسـتـبـدالَ، والاسـتـبـدالُ يَسْتَلزِمُ هلاكَ المُسْتَبْدَلِ مِنْهُ

(مِنْ) في قوله: ﴿مِّنْهُمْ﴾ بمعنى البَدَلِ؛ أي: نأتيَ ببدلٍ خيرٍ مِنْهم؛ "والتَّفضيلُ باعتبار اختلاف زمانَي الخَلْقِ الأوَّل والخلق الثّاني، أو اختلاف عالَمَيْهِما[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 417.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 180.

والضَّمير المجرورُ في ﴿مِّنْهُمْ﴾ يرجِعُ إلى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ المذكورين في قوله: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾، وهُمُ المَقْصودونَ - غالبًا - في أوّلِ السّورة الكريمةِ في قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾.

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ حاليَّةٌ[1]؛ والمعنى: نَسْتَبْدِلُهُم بخيرٍ منهم والحالُ أنّنا مُتَمَكِّنون مِنْهُم لا يفوتونَنا ولا يُعْجِزونَنا، وذهب بعضُ أهل العلم إلى أنَّ الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ عاطِفَةٌ[2] على جوابِ القسَمِ ومؤكِّدةٌ له؛ أي: إنّا لقادرون على ذلك، وما نحنُ بِمَغْلوبين أو عاجزين عن أن نأتيَ بقومٍ آخرين خيرٍ مِنْهُم.

لا يُعجِزُ اللهَ تعالى شيءٌ

ونظيرُ هذهِ الآيةِ قولُه تعالى: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝١٧﴾ [فاطر: 15 - 17]، وقوله سبحانه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ۝٣٨﴾ [محمّد: 38]، والمقصود بهذه الآيات الكريمةِ تهديدُ المُشْرِكين وبيانُ أنَّ قُدْرَتَهُ تَعالى لا يُعْجِزُها شيءٌ[3].

معنى (ما) في قولِه: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾:

(ما) في قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ حجازيَّةٌ -تعمل عمل لَيْسَ-، و"نحن" اسمُها[4]، وهي هنا تُفيد النَّفي الصَّريح لجوازِ السَّبق والفوتِ على اللّه تعالى مِن أحَدٍ كائنًا مَن كان، فالسَّبْقُ والفَوْتُ جائِزٌ عَلى كلِّ أحَدٍ سِواهُ ﷻ. أمّا عليه فمُحالٌ؛ لأنّ الخلق

انْتِفاءُ السَّبق والفَوْتِ مقصورٌ عَلى اللهِ تَعالى وحْدَهُ

(1) الدعاس، إعراب القرآن: 3/ 303.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 15/ 89.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 106.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 219.

كلُّهُ ملكُه، كما قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [المائدة: 120].

نُكتَةُ التَّعبير بـ ﴿نَحْنُ﴾ في قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾:

بيانُ القُدْرَةِ الإلهيَّةِ والعَظَمَةِ الرَّبّانيَّة

التَّعبير بضمير العَظَمَةِ ﴿نَحْنُ﴾ يتَّسق تمامَ الاتِّساق مع دلالةِ (ما) النّافيةِ معَ اسْمِها ﴿نَحْنُ﴾ في بيان القُدرة الإلهيَّة، واختصاصها بالتَّمكُّن مِن جميعِ الخَلْقِ، ولمّا كان الإنسانُ قد يفعل شيئًا ثم يُنقض عليه، أخبر أنه سبحانه على غير ذلك فـ "أكَّد الأمرَ بالاسْميَّة الكائنة في مَظْهَر العظمَةِ بـ ﴿نَحْنُ﴾، وأعرَقَ في النَّفي فقال: ﴿بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: مِن سابقٍ ما يَغْلِب على شيءٍ لَم نُرِدْه بوجْهٍ مِنَ الوُجوه، ولذلك أتى باسْمِ المَفْعول"[1].

معنى (الباء) في قولِهِ: ﴿بِمَسْبُوقِينَ﴾:

توكيدُ النَّفْيِ وتقريرُ المَعْنى

(الباء) في قوله: ﴿بِمَسْبُوقِينَ﴾ صِلَةٌ على أصلِ الجملةِ؛ إذْ كانَ أصلها قبل دخول الباء: (ما نحنُ مَسْبوقينَ)، فجيءَ بالباءِ لتَوْكيدِ النَّفي، ولتقرير أنَّه تعالى لا يفوتُه هاربٌ، ولا يَفلِت من قبضَتِه فارّ؛ فبالباء في هذا السّياق - كما قال البِقاعيُّ - "أعرَقَ في النَّفي"[2]؛ لذلك كان الإتيانُ بها أنسبَ في تحقيقِ المُطابقة.

دلالَةُ التَّعبير بالسَّبْقِ في قوله: ﴿بِمَسْبُوقِينَ﴾:

اللهُ ﷻ لا يُسْبَقُ ولا يُغْلَب

المسبوق: المغلوبُ، فكأنَّه تعالى قال: لا يَسبِقُنا أحَدٌ، ولا يُعْجِزنا أحدٌ عَن ذلكَ، ولا يَفوتنا أحَدٌ فيما نُريدُه[3]، "لكنَّ مشيئتنا المبْنيّة على الحِكَم البالغةِ اقتضتْ تأخيرَ عقوباتِهم"[4].

والمسبوقُ هُنا مستَعارٌ للمَغْلوبِ عن أمرِهِ - أي: الممنوعِ عَن

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 418.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 418.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 214.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 9/ 35.

تنفيذِه -، فشُبِّه بالمسبوقِ في الحَلَبَة، أو بالمسبوقِ في السَّيْر، ومنه قول مُرّة بن عدّاء الفَقْعسيّ:

كَأَنَّكَ لَمْ تُسْبَقْ مِنَ الدَّهْرِ لَيْلَةً *** إذا أنْتَ أدْرَكتَ الَّذي كُنْتَ تَطْلُبُ[1]

يريد: كأنَّك لم تُغلَب إذا تَدارَكْتَ أمرَكَ وأدركْتَ طِلْبَتَكَ"[2].

توجيه المتشابِهِ اللَّفْظيِّ في الآية الكريمةِ:

براعَةُ البيانِ القُرآنيِّ في انتقاءِ الألفاظِ إفرادًا وتثنيةً وجَمْعًا بِما يُناسِبُ سياقاتِ كلٍّ مِنْها

جمع سبحانه هنا المشارقَ والمغاربَ باعتبار أنّ لها في كلِّ يوم من أيّام السَّنةِ مشرقا مُعيَّنا تُشرِق منه، ومغْربا معيَّنا تَغرُب فيه، واختيارُ الجَمْعِ أنسَبُ لمَعنى التَّفرُّقِ إلى جماعاتٍ؛ المذكورِ في قوله تعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾.

وقال في سورة الرَّحمن: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ [الرّحمن: 17] أي: مشرِق الشِّتاءِ والصيفِ ومغربهما. وانتقاءُ التَّثنيةِ هنا مناسبٌ لبناء سورةِ الرَّحمن على التَّثنية؛ إذ هي واردةٌ في مخاطبة الثَّقلين: الجنِّ والإنسِ، ولذا تكرَّر فيها قول الله تعالى: (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ)، وذُكرَ فيها ضروبٌ من التَّثنية، كقوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾﴾ [الرّحمن: 19]، وقوله سُبحانَهُ: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ [الرّحمن: 31]، وقوله ﷻ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرّحمن: 46]، وقوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾﴾ [الرّحمن: 50]، وغير ذلكَ.

وقال سُبحانَهُ في سورة المزمّل: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [المزمل: 9] والمراد: جِنْسُهما، فهما صادقانِ على كلِّ مشرقٍ من مشارقِ الشَّمس، وعلى كلِّ مغرب من مغاربها. وإفرادُهُما أنسَبُ لذِكْرِ وحدانيَّةِ الله تعالى؛ فإنَّه سُبحانَهُ قال: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزّمّل: 9].

(1) الخطيب التبريزي، شرح ديوان الحماسة، ص: 69.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 180.

وبذلك يتبيَّن أنَّه لا تعارض بين مجيء هذه الألفاظ تارةً مفردةً، وتارةً بِصيغة المُثَّنى، وتارة بصيغة الجمع[1]، بل ذلك من براعة النَّظْم القرآنيِّ في التَّصرُّفِ في الألفاظِ إفرادًا وتثنيةً وجمعًا بما يُناسِبُ المقامَ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التَّبديل والتَّغيير:

التَّبديل: اتِّخاذ خَلَفٍ من الشَّيء، يقال: تَبَدَّل الشَّيءَ، وتَبَدَّل به، واستبدله، واستبدل به، كلُّه: اتَّخَذَ منه بَدَلا. وأبدلَ الشَّيءَ من الشَّيء، وبَدَّله: تَخِذَه منه بدلًا. قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: 48][2]. والتَّغيير: هو إحداثُ شَيْءٍ لَم يكن قبلَهُ، وانتقالُ الشَّيء من حالٍ إلى حالٍ أُخرى[3].

التَّبديل اتِّخاذ خَلَفٍ من الشَّيء، والتَّغييرُ إحداثُ شَيْءٍ لَم يكُن، وتحويله إلى حالٍ أخرى

السَّبق والفَوْت:

السَّبْقُ: التّقدّم في السّير حقيقةً، وإحرازُ الفَضْلِ والتّبريز، وعدَمُ الفَوْتِ مجازًا[4]، والفَوْتُ: خلافُ إدراكِ الشَّيء والوصولِ إليه. يُقال: فاتَهُ الشَّيءُ فَوْتا. وتفاوَت الشَّيْئَانِ: تباعَد ما بينَهُما؛ أيْ: لَم يُدْرِكْ هَذا ذاكَ[5].

السَّبْقُ التَّقدُّم وإحرازُ الفَضْلِ، والفَوْتُ عدَمُ الإدراكِ

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 106.
(2) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (بدل).
(3) الجرجاني، التعريفات، ص: 63.
(4) الراغب، المفردات: (سبق).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فوت).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والستون،
سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والستون، سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 64 ، 806 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-647-38-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 64 : المجلد الرابع والستون، سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-647-38-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6817852 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"